الإشكالات المنهجية في دراسات الشبكات الاجتماعية الرقمية، وسبل التغلب عليها

د. عبد الوهاب الرامي

ورقة مقدمة للمؤتمر الدولي "**وسائل التواصل الاجتماعي التطبيقات والإشكالات المنهجية**"
كلية الإعلام والاتصال بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الفترة من ١٩-١٤٣٦/٥/٢٠هـ
الموافق لـ ١٠-٢٠١٥/٣/١١م، الرياض، المملكة العربية السعودية

د. عبد الوهاب الرامي – أستاذ باحث – المعهد العالي للإعلام والاتصال- المغرب
errami.isic@gmail.com
الهاتف: 69 62 11 62 6 212+

الإشكالات المنهجية في دراسات الشبكات الاجتماعية الرقمية، وسبل التغلب عليها

د. عبد الوهاب الرامي
أستاذ باحث
المعهد العالي للإعلام والاتصال– المغرب

I– البحث العلمي وخصائص الشبكات الاجتماعية الرقمية

تتأثر الإشكاليات المرتبطة بالبحث العلمي في مجال الشبكات الاجتماعية[1] الرقمية بخصوصيات هذه الأخيرة. ويضحي، تبعا لذلك، لزاما على الباحث اعتبار الملامح العامة لهذه الشبكات، حتى لا يزيغ عن جادة البحث السوي، نظرية، منهجا، وأدوات.

ويمكن، بدءا، تفريع حقل الشبكات الاجتماعية الرقمية إلى جانبين، أحدهما متعلق بالتشبيك، والثاني بالرقمنة. وهما أهم عنصرين يميزان الاتصال على االشبكة العنكبوتية. وينطبع التواصل على الشبكات الاجتماعية الرقمية بخصائص فضاء الإنترنت التي يمكن اختزالها في ما يلي:

- التشاركية (بما فيها مشاركة الزوار في المحتوى (تعليقات المتصفحين))
- اندغام المرسل والمتلقي
- التفاعلية
- اللامادية
- الحضور الكلي omniprésence
- الانتشار الواسع
- السرعة
- التحيين
- الاستنساخ

- المجهولية
- استعمال الوسائط المتعددة (المولتيميديا)

وتترتب على هذه الخصائص سمات أخرى تميز التواصل على الشبكة العنكبوتية[٢].

ونسرد هنا بعض الأسس التي يتوجب على الباحث في مجال التواصل عبر الشبكات الاجتماعية الرقمية الوعي بها، واعتبارها عناصر تشكل جزءا من هيكلة تصورات ومشاريع البحث العلمي:

١- الانطلاق من تعريف إجرائي للشبكات الاجتماعية الرقمية:

الملاحظ أن تعريف الشبكات الاجتماعية نفسه ما زال يطرح عدة إشكالات.

وإذا تأملنا التعريف الأكثر انتشارا على موقع ويكيبيديا، فإن هذه الشبكات تعرّف بوصفها خدمات تتيح للأفراد:

أ. بناء صورة عمومية أو شبه عمومية داخل منظومة (أو نسق) ما؛
ب. تدبير قائمة من المستعملين الذين يتم اقتسام الروابط معهم؛
ج. معاينة قائمة الروابط التي وضعوها والإبحار فيها، وكذلك القوائم التي وضعها المستعملون الآخرون داخل المنظومة؛
د. بناء جاذبيتهم (المستعملون) أساسا على النقاط الثلاثة الأولى، لا على نوعية معينة من النشاط[٣].

والملاحظ أن هذا التعريف يهتم بوظيفة واحدة أساسية ضمن وظائف أخرى، أي وظيفة بناء الصورة، ويسقط وظائف مثل الإخبار، والنشئة، والترفيه، والتثقيف وغيرها.

ويذهب ميشيل فورسي Michel Forsé إلى أن الشبكة الاجتماعية هي "مجموعة من العلاقات بين مجموعة من الفاعلين. وقد تكون هذه المجموعة منظمة (مقاولة مثلا)، أو لا (كشبكة الأصدقاء)، كما

قد تكون العلاقات بين المجموعة ذات طبيعة متنوعة جدا (سلطة، تبادل هدايا، استشارة، إلخ.)، متخصصة أو لا، متوازية أو لا (لوميو Lemieux ١٩٩٩)"[٤].

فضلا عن هذا، تفرق دانا بويد Danah Boyd (باحثة أمريكية في مجال الشبكات الاجتماعية الرقمية) بين مواقع الشبكات الاجتماعية social network sites وبين مواقع التشبيك الاجتماعي[٥] social networking sites (مثل viadeo و linkedIn). ويؤدي الصنفان نوعين مختلفين من الخدمات، كما تختلف ملامح مستعمليهما (ارتفاع سن ومستوى الفئة السوسيو-مهنية لمواقع التشبيك الاجتماعي مقارنة بمواقع الشبكات الاجتماعية).

ولذلك يمكن تصور تعريفات عدة، يرتبط كل منها بزاوية معالجة مواضيع البحث المختلفة.

"وقد بين التحليل البنيوي الاختلافات القائمة بين الشباب الذين يستعملون الشبكات الاجتماعية المنفتحة على الخارج، والأقل شبابا الذين يتمركزون حول شبكات القرب الأُسَرية والجغرافية"[٦].

٢- الاستعانة بمفاهيم أخرى لمقاربة مفهوم الشبكات الاجتماعية

تشكل الشبكات الاجتماعية ما يسميه إدغار موران ١٩٩١ الماكرو- مفهوم « macro-concept » بمعنى أنه هو نفسه في حاجة إلى مفاهيم أخرى تجعله أقرب إلى التحديد والإدراك (ويكيبيديا). وتشير بعض الدراسات، في هذا الصدد، إلى اللبس الكبير على مستوى المفاهيم الموظفة لملامسة ظاهرة الشبكات الاجتماعية ووسائل الإعلام الاجتماعية[٧].

ويظل المهم هنا هو كيف يعزز البحث العلمي المفاهيم التي يشتغل بها، ويقوم بتبيئتها وخلق مفاهيم جديدة مسعفة في تشريح وفهم هذا الحقل الجديد من التواصل.

٣- مقاربة التفاعلية كمبدأ جوهري مهيكل للاتصال في الفضاء السيبراني

إن ما يطبع الشبكات الاجتماعية الرقمية بشكل أساس هو التفاعلية المتنوعة المتعددة الوسائط، والتراكمية.
وتتغير بموجب هذه التفاعلية أدوار الأشخاص من لحظة لأخرى حسب درجة نشاطهم وطبيعته، ويتصرفون ضمنها بوصفهم مرسلين ومستقبلين في نفس الآن (اندغام المرسل/المستقبل)، كما في حالة الحديث اليومي العادي.

وتحيل التفاعلية التراكمية كذلك على تعليقات الزوار، أو ما يمكن تسميته بـــ ''التعليق على التعليق''.

٤- مقاربة الشبكات الاجتماعية الرقمية كبديل للفضاء العام

إن فضاء الإنترنت نطاق مفتوح لممارسة حرية التعبير خارج طوق سلطات الضبط التقليدية (الأسرة، المجتمع، الفضاء العام...). وقد باتت الشبكات الاجتماعية الرقمية تطرح نفسها كبديل للفضاء الأسري والعام، خاصة لدى الشباب. ولا يشتغل هذا البديل بنفس مقومات تدبير الفضاء الأسري وكذا العام التقليديين. وفي هذا الصدد، يتوجب على الباحث الإلمام بمبادئ التنشئة الاجتماعية في ظل التحولات التي تؤسس لها التكنولوجيات الجديدة للإعلام الاتصال، وكذا فهم المواصفات التقنية التي ينبني عليها الاتصال في مجال الشبكات الاجتماعية الرقمية.

٥- اعتبار الإنترنت فضاء لاجتماعية sociabilité جديدة

ويمكن التعبير عن هذه الاجتماعية بـــ "الفردانية الاجتماعية"، حيث كل فرد يعزز حضوره ضمن عشيرة أو عشائر الإنترنت المتداخلة باعتباره تعبيرا عن الذات أولا، والمجتمع ثانيا. وقد حدث تحول في أهداف الشبكات الاجتماعية يطرح أكثر من إكراه على مستوى المقاربة المنهجية: فالمجموعات الافتراضية التي ظهرت في البداية كانت منظمة حول الاهتمامات المشتركة (كما هو الحال في التشبيكات التقليدية) لتتحول مع الثورة الرقمية التي يجسد الإنترنت اليوم قمتها إلى تشبيك يدور حول الأشخاص.

ويمكن القول، استئناسا بماك لوهان صاحب مقولة ''الوسائل رسائل''[٨]، إن الشبكة العنكبوتية تشكل امتدادا للأنا بكل مركّباتها، كما شكلت السيارة امتدادا للقدمين، والراديو امتدادا للأذن، والتلفزيون

امتدادا للعَيْن. وتستتبع هذا الأمر جملة من السلوكيات منها أساسا إشهار الذات وفقا لقاعدة ''أنا على الشبكات الاجتماعية، إذن أنا موجود''، وإشهار الحميمية، الذي يشكل الوجه المتقدم لإشهار الذات. وهذه الظاهرة مكون بارز لـــ "الإنسية الرقمية" التي تسم الاتصال الرقمي.

وقد برزت ظواهر جديدة لم تكن متاحة في وسائل الاتصال التقليدية، يمكن ربطها بمفهوم التنشئة، ومنها التنشئة على ''إخراج الهوية''[٩] (الإخراج بالمعنى السينمائي).

٦- اعتبار خاصيات التشارك، والتعدد، والتنوع، والتلاقي الوسائطي convergence

يوفر الإنترنت آليات للتشارك ولتقاسم المحتويات وتبادلها، بكل ما يخلف ذلك من أفعال وردود أفعال متعددة، مختلفة، متناغمة أو متناقضة. بل إن ما يميز الشبكات الاجتماعية الرقمية هي ردود الفعل التي ترد في شكل محاورات جماعية، وهو ما لا يتأتى في وضع وسائل الاتصال التقليدية. وهنا يبدو أن النموذج التقليدي للاتصال النازل قد تقهقر لصالح النموذج الأفقي وذلك لاعتبارين. يتمثل الأول في أن ردود الأفعال (الخطاب) هي حاضرة أكثر من الأفعال. أي أن الخطابات التي ترد على شاكلة ردة فعل توجد بوفرة أكبر من الخطابات التي ترد كفعل أولي. أما الاعتبار الثاني، فيتجلى في أن المتلقي أصبح يتصرف كمرسل دون مركب نقص، سواء تعلق الأمر بالمضامين التي يشارك بها، أو بالشكل الذي ترد عليه هذه المضامين. وتأسيسا على ما سبق، يمكن توصيف مادة الشبكات الاجتماعية بـــ "المحتوى الجمْعي" computation sociale.

والشبكات الاجتماعية الرقمية في حد ذاتها متنوعة لأنها تؤدي وظائف مختلفة، وتقوم على المولتيميديا أو تعدد الوسائط، ويستعمل روادها الروابط التشعبية التي تعزز بدورها التنوع[١٠]. ويؤدي التنوع الحاصل على مستوى الشبكات الاجتماعية الرقمية إلى تشظي المواضيع التي يمكن الإمساك بها علميا، وكذلك تناسلها. وهو ما يؤدي إلى "عدم تجانس المواضيع المدروسة وصعوبة تحديد موضوع الشبكات الاجتماعية الرقمية"[١١].

ويطرح هذا على الباحث أساسا مسألة تحديد العيّنات التي يمكن من خلالها الوصول إلى نتائج غير منقوصة، تحقق الإشباع العلمي.

وكل تعليق مفتوح هو نفسه على تعليق آخر في اتجاه الإسناد أو الشجب.

وتتعدد الخطابات على المواقع الاجتماعية الرقمية بتعدد مصادرها، كما يبين الشكل التالي:

تعدد الخطابات ومصادرها على المواقع الاجتماعية الرقمية

والتنوع حاصل كذلك على مستوى أصناف الشبكات الاجتماعية. وهناك ما لا يقل عن تسعة أصناف[١٢] كما يبين الجدول التالي:

أصناف الشبكات الاجتماعية

صنف الشبكة الاجتماعية	نماذجها
فيسبوك ونظراؤه	Facebook ; Google+ ; Friendster ; Tagged ; Bebo ; Netlog ; Skyrock ; Hi5 ; Peuplade
تويتر ونظراؤه	Twitter ; Identi.ca ; Path ; Reddit ; Pheed
تشارك الصور الفيديوهات	Instagram ; Flickr ; YouTube ; DailyMotion ; Vimeo ; Vine ; Snapchat ; Flipagram
مواقع "التعليق" « Épinglage »	Pinterest ; Tumblr ; Who Art You ; Pearltrees
الموسيقى	Myspace ; Spotify ; Deezer ; Grooveshark Soundcloud ; Mupiz ; Music me ; Bittorrent (أضفنا هذا الموقع غير المذكور في المصدر)
الأدب	Sens critique ; We love words ; Riffle ; Libfly
مواقع التجميع agrégateurs	Diigo ; Delicio.us ; Netvibes ; Hellocoton ; Symbaloo ; Scoop.it ; Flipboard
غير المصنفة	Slideshare ; Issuu ; Glowbl ; Foursquare ; Paris.onvasortir.com
الموسوعات (أضفنا هذا الصنف الذي لم يذكره المرجع الأصلي)	Wikipedia, Freebase

وليس للشبكات الاجتماعية نفس الكفاءة أو النجاعة في المجال التواصلي. بل إن هناك اهتمامات يتم كيْلها للشبكات الاجتماعية عامة. فالفيسبوك على سبيل المثال متهم بما أُطلق عليه "عَرَض البَطّ" syndrome du canard. فالبطّ يسبح، يجري ويطير، لكنه يسبح بمهارة أقل من تلك التي يمتلكها السمك، ويجري بشكل أقل كفاءة من الفهد، ويطير دون أن يصل إلى مستوى النسر[١٣]. والمعنى المستشفّ من الصورة أعلاه أن فيسبوك يغلّب الكم على الجودة، بما يؤدي إلى تسطيح المعرفة، ومنح المشاركين فيه وهم اغتراف المعرفة نظرا للكم الهائل من المعلومات التي يستقونها منه في اليوم الواحد.

II- الشبكات الاجتماعية الرقمية وسؤال "النظرية-المنهج-الأداة"

لحد الساعة ليس هناك تراكم معرفي كاف حول مجال الشبكات الاجتماعية الرقمية، ولذلك فإن البحوث في هذا الجانب تظل، إن وجدت، ذات طبيعة استكشافية استطلاعية descriptive or normative (ميدان بكر)، أو وصفية descriptive or normative . وقد لا يحتاج الباحث إلى تأسيس بحثه على فرضيات (فروض) علمية، كما هو الحال في بحوث اختبار العلاقات السببية، ما دامت ملامح المشكلات التي يتم التطرق إليها غير واضحة تماما. ويقوم البحث هنا على أسئلة، وإن بدت غير متماسكة وجزئية مقارنة بما تمنحه الفرضية من تأطير لمادة البحث وتنغيم لها cohérence. والفرضيات مرشحة، بالنظر إلى مستوى البحث اليوم في المجال، لأن تظهر كنتيجة للبحث العلمي وليس مقدمة له.

ويطرح الأمر هنا مسألة البحث التأصيلي التقعيدي في المجال، والذي يلتقي ببناء النظرية ويبتغي الخلوص إلى قوانين ثابتة مفسرة.

وبما أن البحث العلمي ينطلق من مشكلة قائمة أو هو يستشرفها بهدف تفاديها -وكل بحث خارج هذا النطاق يعد ترفا- فإن الدراسات التي تتعقب المشاكل المرتبطة بفضاء الشبكات الاجتماعية الرقمية في أبعادها الدقيقة تظل غير مكتملة بالشكل الذي يتيح رصد خريطة لكل أشكال التواصل ووظائفه والخلل الوظيفي المرتبط به[١٤].

ولبلوغ هذا الهدف، يتعين على البحث العلمي في المجال أن ينكبّ على مساءلة ثالوث "النظرية-المنهج-الأداة" الموظف في المجال، والذي يطرح من جانبه عدة تحديّات.

١- الشبكات الاجتماعية الرقمية وسؤال النظرية

يمكن للباحث استلهام كل النظريات القائمة، وحتى أجزاء من تلك التي تعتبر متجاوزة، ابتداء مما أنتجه الأمبيريقيون الأوائل بالولايات المتحدة الأمريكية (مدرسة شيكاغو ومدرسة البحث في مجال التواصل الجماهيري La Mass Communication Research)، والسؤال-البرنامج الذي وضعه هارولد لاسويل إشارة منه إلى الحلقات التي تتكون منها العملية التواصلية "من، يقول ماذا، بواسطة أي قناة، وبأي أثر؟"، والذي يمكن تفكيكه إلى جملة من المجالات السوسيولوجية[١٥].

وقد قدمت الوظيفية بدورها، من خلال أعلامها (لاسويل، لازرسفيلد، ميرتون، كاتز، هوفلاند، وميلس) جملة التصورات التي أغنت الإطار النظري المرتبط بحقل الاتصال الجماهيري. وإن ظلت الوظيفية مستلهمة بشكل كبير النموذج الرياضي لشانون، باتت معه أسيرة خطية اتصالية تنطلق من المرسل نحو المتلقي، بآثار تم التعبير عنها بـــ "الحقنة تحت الجلدية".

وجاءت إسهامات النسقية systémisme، والمرجعية السيبرنية، والبنيوية، ومدرسة "بالو ألتو" لتطور التصورات التأصيلية حول الحقل، وصولا إلى النظرية النقدية المتجسدة في مدرسة فرانكفورت. وضمن النظرية النقدية توجد مقاربات الدراسات الثقافية cultural studies، وكذلك أدبيات الذين نظّروا في مجال التبعية، والإمبريالية[١٦]، والصناعات الثقافية.

وبعد ذلك بدأ التنظير يهتم بالمعيش اليومي وتجلياته على مستوى الاتصال، و لم يعد الاهتمام مركزا فقط على البنيات الفوقية، بل على القاعدة التي تتأسس من المتلقين. وظهر تياران في هذا الاتجاه هما حركة تداخل الذاتيات/التداخل الذواتي Le mouvement intersubjectif، وإثنوغرافية الجماهير Ethnographie des audiences.

واهتم التنظير في نهاية المطاف بالهيمنة الكلية للتواصل، وآثارها المختلفة، خاصة بعد مجيء الويب ٢,٠ في ارتباط مع مفهوم مجتمع المعلومات والمعرفة.

لكن الجدير بالذكر هنا أنه لا توجد نظرية واحدة مفسرة لما يجري اليوم في ارتباط بعالم التواصل الرقمي وضمنه الشبكات الاجتماعية الرقمية. وحتى ما يسمى بنظرية الشبكات الاجتماعية، فهي في حاجة إلى التصورات النظرية المذكورة أعلاه لإشباعها.

كما أنه يبدو ضروريا، من أجل التمكّن النظري، إعادة قراءة رواد البحث الأنتروبولوجي والاجتماعي في مجال الشبكات الاجتماعية[١٧].

ويمكن تقسيم النظريات المنتجة في حقل الاتصال إلى أربعة أجيال: النظريات الأولى التي آمنت بالدور الكاسح لوسائل الاتصال وخاصة عن طريق وسائل الإعلام، وقدراته الخارقة في الحفاظ على تماسك المجتمع وتغييره نحو الأحسن؛ والنظريات التي تأسست على فكرة محدودية تأثير وسائل الإعلام وممانعة جمهور المتلقين له؛ وتلك التي انبنت على الدور الإيديولوجي لوسائل الاتصال، وهو ما ارتكزت عليه النظرية النقدية؛ وأخيرا تلك التي تأسست على قناعة أن الاهتمام بالبنيات الكبرى داخل المجتمع يغطي على التفاعل الحقيقي لوسائل الاتصال مع الجماهير كأفراد وجماعات، وفي هذا الإطار تمت ملامسة ما يمكن وسمه بـــ "التكنو-اتصال" techno-communication.

وحين الحديث عن الشبكات الاجتماعية الرقمية، لا بد من الاهتمام بشقي التواصل في معناه الثنائي كفعل ورد فعل متواترين، وكذا التسطير على الاستخدامات والإشباعات في ارتباط بالحتمية التكنولوجية déterminisme technologique، ونظرية الشبكات الاجتماعية (التي تحتاج إلى أن تتجاوز الجانب الكمي الغرافي graphs).

– الاستخدامات والإشباعات uses and gratifications:

"يعتمد منظور الاستخدامات والإشباعات على تحقيق ثلاثة أهداف رئيسة هي: الكشف عن استخدام الأفراد لوسائل الاتصال، والكشف عن دوافع الاستخدام، والتأكيد على الفهم العميق لعملية الاتصال من خلال النتائج التي يتم التوصل إليها. وتقدم شبكات التواصل الاجتماعي لمستخدميها عدة إشباعات مثل إشباع المحتوى، الإشباع الاجتماعي، وإشباعات الاتصال."[١٨]

– الحتمية التكنولوجية déterminisme technologique:

تعني الحتمية التكنولوجية (التي نظّر لها ماك لوهان) أن التكنولوجيا هي التي تحدد مآل المجتمعات وتلوّن خصائص الاجتماعية sociabilité لديها، وأن تطور المجتمعات يتأثر بالتكنولوجيا التي يصنعها الإنسان. والسؤال الذي يجب أن يطرح هنا هو كيف نعيد صياغة النظريات الواردة في مجال علوم الإعلام والاتصال على ضوء المستجد التقاني (التكنولوجي) المؤدي إلى "الكل التواصلي" le tout communicationnel.

وتتراوح آثار الحتمية التكنولوجية بين تصورين متباينين: الخراب والتغريب، من جهة، والتحرير والسلم الاجتماعي، من جهة أخرى (فيلب بروتون Philippe Breton، أرمون ماتلار Armand Mattelart، باتريس فليشي Partrice Flichy)، كما أنها تتأرجح بين الصغير المتناهي والكبير المتناهي[١٩].

واستنادا إلى نظرية الحتمية التكنولوجية، فإن كل تقنية جديدة تشكل إرهاصا لنشوء ''مجتمع جديد''.

– نظرية تحليل الشبكات الاجتماعية:

إن ما يسمى "تحليل الشبكات الاجتماعية" Analyse des réseaux sociaux هي مقاربة سوسيولوجية بالأساس[٢٠]. وهي مطبقة على الشبكات الاجتماعية الرقمية. ويتأسس إطارها النظري على مفهوم البنية الاجتماعية التي تحدد سلوكيات الأفراد.

وتقوم نظرية الشبكات الاجتماعية على أساس أن العلاقات الاجتماعية تتكون من عُقد وروابط nœuds et liens. وتمثل العُقد الفاعلين الاجتماعيين على الشبكة، سواء كانوا أشخاصا أو مؤسسات، والروابط العلاقات القائمة بين هؤلاء الفاعلين. وترمي التحليلات على هذا المستوى إلى تحديد الرأسمال الاجتماعي للفاعلين، ومعرفة الروابط الأكثر نجاعة، وكذلك البياضات البنيوية (حيث لا توجد روابط)، على أن شكل الشبكة الاجتماعية التي يتم تحويلها إلى مبيان غرافي graph تمكن من تحليل مدى نجاعتها بالنسبة للفاعلين الاجتماعيين. ويستعين تحليل الشبكات الاجتماعية بالسوسيومترية (القياس الاجتماعي)، وكذا النماذج الرياضية للوصول إلى غاياته[٢١].

ويُعني تحليل الشبكات الاجتماعية بالعلاقات بين الفاعلين أكثر من عنايته بالوحدات والفئات حسب المقاربة التقليدية (الأطفال، المرأة...)، أو بالأفراد في حد ذواتهم. ويترصد التحليل تموضع الفاعلين على الشبكة، والعلاقات والروابط التي تستشف منها الأدوار الاجتماعية الخاصة بالأشخاص أو المؤسسات.

ويروم تحليل الشبكات الاجتماعية الإجابة عن الأسئلة التالية: "من هم الوسطاء، والزعماء (gourous)، والمؤثرون، وقادة الرأي، والنقاط المعزولة، وأين توجد المجموعات المتجانسة، وممن تتكون؟ ومن يوجد في قلب الشبكة أو على هامشها ؟"[٢٢]

ويمكن إجمال الملاحظات الأساسية على هذه النظرية في ما يلي:

أ. إن تحليل الشبكات الاجتماعية يغلّب الكمي على الكيفي. وتحتاج هذه النظرية إلى توسيع وتكثيف لجعلها إطارا للمقاربة النوعية.

ب. إن تحليل الشبكات الاجتماعية يُعْنى بشكل رئيس بالعلاقات بين الفاعلين أكثر من عنايته بالفاعلين أنفسهم.

ج. هناك صعوبة في الحصول على بنية متكاملة قابلة للتحليل الناجع.

د. هناك صعوبة في القيام بتحليل بنيوي للشبكات الاجتماعية الرقمية[٢٣].

ه. هناك صعوبة في تعقب مسار الخطابات وتداولها، وتتبع امتدادات التشبيك للحصول على معطيات بيانية كاملة، يمكن إخضاعها لتفسير راشد، ونهائي. مما يحتم الاشتغال على الجزئي، والظاهر.

و. هناك ضرورة توفير مناهج وأدوات ومؤشرات ملائمة للقياس. وهنا لا بد من الإشارة إلى منحيين يجب أن يسير فيهما البحث: دراسة التفاعلات بين الأنشطة والممارسات الاعتيادية على الويب، ووضع نماذج لتداول المعطيات ومبيانات غرافية graphs مفسرة[٢٤].

ز. إن تحليل الشبكات الاجتماعية مازال مرتبطا بالبعد الوصفي، ولم يتجاوزه لتبني البعد الاستشرافي[٢٥].

ح. إن البحث العلمي الرصين في مجال الشبكات الاجتماعية الرقمية بالتحديد ما زال في حاجة إلى تطوير. وعليه أن يشتغل بكل مكونات الإطار النظري المتنوع في مجال البحث العلمي، لا أن يقتصر على الدراسات المرتبطة أساسا بالتسويق (الماركوتينغ) بهدف البحث عن زبائن جدد على الشبكة، أو ترصّد الإمكانات المتاحة للماركات، أو تعقب الأخطار التي تتهدد الاستثمار في الشبكات الاجتماعية الرقمية. ولحد الآن، ما زالت مقاربة الشبكات الاجتماعية توظف أكثر لأهداف تجارية، أو في مجال الاستشارة في مجال العلاقات المهنية، ولم يتم تطويرها لتكون إطارا رصينا للبحث العلمي الموضوعي والمحايد.

٢- الشبكات الاجتماعية الرقمية وسؤال المنهج

كل المناهج المستعملة في البحوث المتعلقة بوسائل الإعلام والاتصال هي صالحة مبدئيا لمقاربة الشبكات الاجتماعية الرقمية. وهنا نورد أهم هذه المناهج الموظفة في المجال.

- المنهج التاريخي
- منهج المسح أو منهج الدراسات المسحية surveys
  - مسح الرأي العام
  - تحليل المضمون / تحليل الخطاب
  - مسح جمهور وسائل الإعلام
  - مسح اساليب الممارسة الإعلامية
- منهج دراسة العلاقات المتبادلة
  - دراسة الحالات
  - الدراسات السببية المقارنة
  - الدراسات الارتباطية
- منهج الدراسات التطورية longitudinal
- المنهج التجريبي

لكن يظل الإشكال قائما حين أجْرأة المنهج عن طريق أدوات التحليل. وتختلف الأسئلة التي تهم هذا الجانب بين:

– أسئلة مرتبطة بمسح الرأي العام:

يروم الباحث حين مسح الرأي العام الإمساك بالانطباعات والآراء والأفكار والمعتقدات والاتجاهات والمواقف والسلوكيات والوقائع (Attitudes, faits et opinions). وتكمن المشكلة هنا في تحديد المعايير المستعملة وتدقيقها، خاصة منها:

- معيار "النطاق الجغرافي الرقمي".
- معيار "نوعية الجمهور الرقمي".
- معيار الأسلوب الإحصائي: المسح الشامل غير ممكن، والمسح بالعينّة يطرح جملة من التحديات العلمية.

وحتى مفهوم الرأي العام الرقمي، هو في حاجة للتدقيق العلمي، لأنه رأي مرتبط بشرط التعبير عنه على الشبكات الاجتماعية، في حين أن الرأي العام كان في الغالب كامنا، ولا يملك مجالا يعبّر فيه عن نفسه بمثل هذا الزخم والحرية المتاحة له الآن عبر الإنترنت. وهذه التعبيرية المرتبطة بالرأي العام الرقمي تحول خصائصه المعروفة في الأدبيات التنظيرية المعروفة في مجال الاتصال الجماهيري. فهل يمكن اليوم، على سبيل المثال، نعت الرأي العام داخل الشبكات الاجتماعية الرقمية بالكامن أو السكوني؟

ومفهوم الرأي العام مرتبط بمفهوم آخر وهو "الاجتماعية" sociabilité، التي تأخذ على مستوى الإنترنت طابعا رقميا، منفتحا على الواقع لكن بتداعيات جديدة غير مسبوقة في سياق ما قبل الشبكة العنكبوتية.

– أسئلة مرتبطة بتحليل المضمون:

تفيد دراسة تحليل المضمون في التعرف على مدى اهتمام الوسيلة بالموضوعات الإعلامية من حيث الشكل والمضمون، وتعنى بتحليل المواضيع المطروقة بشكل مفصل (الخطابات الأساسية، الاتجاهات، الأفكار والمقاصد...). إلا أنه يتم إغناء المضامين التي يتم تداولها بشكل مسترسل، وقد يعمد المرسل إلى

تحيين موضوع كان أثاره على ضوء ردود الأفعال التي يتلقاها. وهذه الحركية تعطي الانطباع أن النتائج التي يتوصل إليها الباحث تظل دائما منقوصة.

وهنا تصبح لمسألة حدود البحث، وتأطير طموحاته أهمية كبرى، درءا لكل تعميم قد لا يتماشى وحال المضامين الموازية التي تشكل امتدادا طبيعيا للمضامين الأولية.

– أسئلة مرتبطة بمسح جمهور الشبكات الاجتماعية الرقمية:

يهدف هذا النوع من الدراسة إلى معرفة الخصائص السوسيو–مهنية والثقافية للجمهور (السن، النوع، المستوى التعليمي، المهنة، التوزيع السكاني، مستوى المعيشة، الطبقات الاجتماعية...) أو الوقوف على طرق تواصل الجمهور وتفضيلاته. وتكون الغاية من مسح الجمهور تكييف الوسيلة الاتصالية مادتها لخصائص الجمهور، من أجل تغيير السياسة التواصلية أو الاستفادة من البيانات من طرف المعلنين.

وهنا تطرح مسألة شساعة الجمهور، ومجهولية جزء كبير منه، وتنوعه، وتغير أوضاعه status كصعوبات يجب البحث عن سُبل تجاوزها.

– أسئلة وصف القائمين بالعمليات الاتصالية وكشف مقاصدهم ونواياهم:

وهنا تظهر صعوبات أخرى مرتبطة بتقدير جدية ما ينشر على الشبكات الاجتماعية الرقمية، لأن هذه الأخيرة تستعمل في كثير من الأحيان التواصل لذاته خارج مضامينه، وتبادل المجاملات، والفرجة، والتلصص على الآخرين... ولأن المواقع الاجتماعية الرقمية هي عبارة عن نادٍ مفتوح ومتنامٍ، وما يطلق عليه صداقات داخل هذا النادي هو مجرد ترخيص بالتواصل.

– أسئلة مرتبطة بمسح أساليب الممارسة التواصلية للمواقع الاجتماعية الرقمية.

– أسئلة مرتبطة بالتعرف على شخصية مواقع الشبكات الاجتماعية الرقمية.

٣– الشبكات الاجتماعية الرقمية وسؤال الأداة

الغاية من أدوات التحليل هي تحصيل المعطيات الكمية والنوعية.

"إن ثورة وسائل الإعلام الاجتماعية تشق طريقها، وهي تتطور بخطى حثيثة. فهل أنتم واعون بحجم هذا التطور؟ إن العلاقات على الشبكات الاجتماعية تمكنكم من تقييم أثر وسائل الإعلام الاجتماعية على أهداف مقاولتكم والتغييرات التي تلحق بها. وتدمج هذه العلاقات المعطيات المستخرجة من الويب والشبكات الاجتماعية بهدف إعطائكم نظرة عامة عن المحتوى الذي تشاركون به، والمجموعة التي تنتمون إليها." يقول إعلان غوغل لتحليل المعطيات Google Analytics، وهو ما يدخل ضمن برمجيات تحليل المعطيات العلائقية مثل Ucinet, Netdraw, Stocnet, Pajek,.

وتستعمل هذه الأدوات، كما في نموذج غوغل أعلاه، في مجال التسويق لتقييم أثر وسائل الإعلام الاجتماعية على الإحصائيات التي تهم المؤسسة، ومعرفة مصدر الزوار، وما يقتسمونه بينهم من معطيات. وقد تستعمل سلبيا من طرف بعض المؤسسات للتلصص على السياسات التواصلية لمؤسسات أخرى تشتغل في نفس المضمار، بهدف إحباط تنافسيتها.

وقد بدأت الشبكات الاجتماعية الرقمية في عرض خدماتها في هذا الباب، ومنها مواقع Instagram, Pinterest و Twitter[٢٦].

وهذه الخدمات مرشحة للتزايد والارتفاع وتحسين الأداء، خاصة أن المبحرين على الشبكات الاجتماعية أصبحوا يهتمون بمعرفة حجم علاقاتهم وطبيعتها، عبر احتساب المعطيات الكمية الشخصية « quantified self ».

ويعد فيسبوك الأول ضمن الشبكات الاجتماعية الرقمية الذي وفر هذه الخدمة بواسطة insights و Graph Search. وهناك مواقع أخرى تطرح هذه الخدمة مثل Pinterest و Square و Amazon.

وهذه الأدوات التي هي في حوزة المواقع الاجتماعية الرقمية قد يستعملها البحث العلمي كمؤشرات، لكنها لا تغني عن خاصية العلمية في حد ذاتها والتي تفرض أن ينطلق الباحث من المعطيات الكمية لقراءة الواقع وتفسيره وتجويده لا الوقوف عندها. ويبدو لحد الآن أن المواقع الاجتماعية الرقمية هي وحدها الكفيلة برصد ما يجري على الشبكة بأكملها، والقيام بدراسات كمية واسعة النطاق.

ويشير أ. فيرون وأ. دو فيديريكو[٢٧] إلى بعض الخصائص التي طبعت في البداية التحليل السوسيولوجي للشبكات، وما زالت قائمة، منها إلزامية التمكن، في حدود معقولة، من الإنجليزية، والجبر، والمعلوميات، مع اعتبار أن مناهج ملاحظة الشبكات الكاملة أو الشخصية[٢٨] تتطلب بحثا مضنيا، وإخراجا مكلفا للمعطيات، ومعالجات معلوماتية خاصة.

هوامش ومراجع:

١. مفهوم الشبكة الاجتماعية social network ليس جديدا، إذ يبدو أن الأنتربولوجي البريطاني جون أ. بارنس هو أول من استعمل هذا التعبير سنة ١٩٥٤ لتوصيف العلاقات والروابط بين الأشخاص والمجموعات الاجتماعية.

٢. تقترن هذه السمات بوظائف الاتصال على الشبكة العنكبوتية، وبنماذج الاستهلاك، وا"الإنسية الرقمية" عامة.

٣. موقع ويكيبيديا Wikipédia.

٤. نفس الرجع.

٥. نفس المرجع.

6. Définir et analyser les réseaux sociaux, Les enjeux de l'analyse structurale », Michel Forsé (Directeur de recherche au CNRS).

٧. اللقاء الذي نظمته الجمعية الفرنسية للتسويق و Syntec Etudes marketing et Opinion في ١٧ ديسمبر ٢٠٠٨.

٨. "من أجل فهم وسائل الإعلام" (Pour comprendre les médias)، ماك لوهان، ١٩٦٤,

9. mise en scène de l'identité.

١٠. قد تكون الخطابات أصلية بمعنى أنه تم إنتاجها داخل الشبكات الاجتماعية أو هي امتدادات لخطابات أصلية منتجة خارج هذه الشبكات.

١١. اللقاء الذي نظمته الجمعية الفرنسية للتسويق و Syntec Etudes marketing et Opinion في ١٧ ديسمبر ٢٠٠٨.

12. « 50 réseaux sociaux analysés : Etude comparative (bibliothèques de Paris)», NetPublic, Accompagner l'accès de tous à l'Internet. Compte rendu de l'étude « Les réseaux sociaux en bibliothèque de lecture publique, Étude comparative », mairie de Paris, 2014.

١٣. نفس المرجع. مقارنة بموقع فيسبوك، تمت الإشارة إلى المواقع التالية بوصفها ضمن الأكثر كفاءة ونجاعة: FlickR, Youtube, Typepad, Twitter, Freindfeed, Meetic, Trombi, Viadeo…

١٤. لا ينفي هذا العمل المهم الذي تضطلع به الجمعية الدولية لتحليل الشبكات الاجتماعية L'association internationale de l'analyse des réseaux sociaux (International Network for Social Network Analysis).

١٥. – تحليل ملكية وسائل الاتصال، والقائم بالاتصال، ومنتجي الخطابات في وسائل الاتصال المختلفة؛

– تحليل المضمون والخطاب؛

– تحليل وسائط الاتصال؛

– تحليل جمهور وسائل الاتصال؛

- تحليل آثار/تأثير وسائل الاتصال.

١٦. أصدر هربرت شيللرHerbert Schiller كتابه الأول الذي يتناول فيه موضوع الإمبريالية الثقافية ''الاتصالات الجماهيرية والإمبراطورية الأمريكية'' Communications and American Empire سنة ١٩٦٩.

١٧. اللقاء الذي نظمته الجمعية الفرنسية للتسويق و Syntec Etudes marketing et Opinion في ١٧ ديسمبر ٢٠٠٨.

١٨. عبد الكريم علي الدبيسي وزهير ياسين الطاهات، "دور شبكات التواصل الاجتماعي في تشكيل الرأي العام لدى طلبة الجامعات الأردنية"، "دراسات"، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٤٠، العدد ١، ٢٠١٣.

19. « L'infiniment grand et l'infiniment petit » حسب فرنسيس بال Francis Balle عالم الاجتماعي الفرنسي المختص في سوسيولوجيا وسائل الإعلام.

٢٠. أودري دولو Audrey Delou، Les Analyse des réseaux et des médias sociaux، موقع Les Dieux de la Stat.

٢١. ويكيبيديا.

٢٢. أودري دولو Audrey Delou، Les Analyse des réseaux et des médias sociaux، مرجع سابق.

٢٣. ''يبدو أنه من الأصوب دراسة الشبكات الاجتماعية الرقمية من زاوية تحليل الأنشطة العادية (ميشيل دو سيرتو Michel de Certeau ١٩٩٠) أو عبر سوسيولوجية غوفمان Goffman المتمحورة حول التفاعلات الاجتماعية، تمثل الذات، الإخراج والتشخيص (la mise en scène)، الأدوار، الطقوس، وإطارات التجربة عوض اعتماد التحليل البنيوي لهذه الشبكات'' (المصدر ويكيبيديا).

٢٤. من خلاصات اللقاء الذي نظمته الجمعية الفرنسية للتسويق و Syntec Etudes marketing et Opinion في ١٧ ديسمبر ٢٠٠٨.

٢٥. نفس المرجع.

26. Twitter Analytics.(يوليوز ٢٠١٤)

27. Alexis Ferrand et Ainhoa de Federico, L'analyse des réseaux sociaux en France : émergence (1977-1991) et diffusion des compétences (2005-2013).

28. Réseau complet et personnel (ego-network). حسب لازيغا Lazega.